جدل القراءة وحدود المعنى في شرح شعر المتنبي لدى ابن معقل

أ. العباس عبدوش
جامعة مولود معمري تيزي وزو

يجد القارئ المتفحص – حين قراءته لابن معقل في مآخذه على شراح المتنبي– يجد نفسه- أمام سؤال ملح

هل الناقد مع تحديد المعنى أم مع تحريره ؟ مع تعددية القراءة أم مع أحاديتها ؟ إذ إن تفحص العنوان من زوايا مختلفة يوحي أنه يحوي فرضيتين معا. فالمآخذ بما هي سلبيات تميز القراءة تومئ إلى أن هناك قواعد متفقا عليها سلفا هي التي توصف بالايجابية، ومن جهة أخرى فان كلمة شراح تومئ إلى تعدد القراءات. فكيف تتعدد القراءة بينما يتحدد المعنى ؟ وهو تساؤل سنحاول الإجابة عليه .

إن مما يعزز هذا التساؤل أن ابن معقل في شرح البيتين:

ألقى الكرام الالى بادوا مكارمهم على الخصيبيّ على الفرض والسنن
فهي في الحجر منه كلما عرضت لـــه اليتامـــى بـــدا بالمجـد والمنن

يقف ابن معقل في صف ابن فورجة ضد الواحدي حيث يرى الأول أن معنى البيتين هو أن المكارم قلّ طالبوها وكان لها من الكرام آباء كفّلوها هذا الممدوح لأنه قاض يتكفل اليتامى فجعلوه كفيل المكارم فهو يربيها مع سائر الأيتام , غير أنه يؤثر المكارم بحسن التربية على سائر الأيتام يرى الواحدي أنه تكلف من لم يعرف المعنى، بينما يعلق ابن معقل "المعنى ما ذكر ابن فورجة لا معنى سواه... والذي ذكره الواحديّ ليس بشيء , وكلام من لم يعرف المعنى[1] . نفهم من الكلام أعلاه:

1)- أن هنالك معنى واحدا يقصد اليه القراء الثلاثة .
2)- أن وجه الاختلاف هو في اصابة هذا المعنى من عدمها .
3)- أن ابن معقل يتقمص دور من يرجح احدى الكفتين .

المنارة للاستشارات

بعد هذا الموقف يثور تساؤل عن كيفية التوفيق بين أحادية المعنى هذه , وبين فتحها على احتمالات عدة كما في قوله: "اقو ل أن هذا الوجه لا يزيد على الوجه الثّاني من شرح ابن جنّي وفيه وجه رابع قد

ذكرته من قبل"[2] (1) بمعنى أدق كيف يحدد المعنى في النص السابق بأنه واحد ليس هناك سواه , ثم يفتحه على احتمالات أربع في هذا النص ؟

يبدو من مجمل قراءة (ألمآخذ) أن النصوص المشروحة تختلف من حيث المعنى حتى وان كانت لشاعر واحد في ديوان واحد، بل حتى وان كانت بين أبيات قصيدة واحدة، إذ أن المعنى قد يكون في السطح قريب المنال وقد يكون بعيد المنال في العمق مما يحتاج إلى جهد القارئ وهو ما يؤكده ابن معقل بصدد شرح الواحديّ لأحد الأبيات: "وأقول: المعنى الذي قصده أبو الطيب أتمّ ممّا ذكر الواحديّ . "[3] وفي هذا إشارة إلى سطحية المعنى عند الواحديّ، بينما يشير في مكان آخر إلى أن: "الفائدة في ذلك ظاهرة[4]. "

تتنوع مداخل قراءة "كتاب المآخذ على شراح المتنبّي" لابن معقل وتتعدد تبعا لاتجاهات المتن ذاته باعتباره قراءة مركبة بمعنى أنّه هو ذاته قراءة لقراءات من جهة ومن جهة أخرى فإنّ ما يملي هذه المراحل هو الشروط المعرفية والثقافية التي أنتج فيها، ذلك أنّ هذه الشروط تتحكّم وبشكل كبير في سيرورة هذه القراءات بعضها على بعض.

وكون مصطلحي (المآخذ) و(الشروح) وليدي عصر آخر كاف لتحديد مداخل الدراسة التي نروم القيام بها ويوجّهها، فهما يؤشران على أوّل مدخل سيمتح من انجازات السيميائية وعلم النصّ، إذًا إنّنا بإزاء قراءة لنصوص متراتبة ومتقاطعة تتمثل في المتن الأوّل (ديوان المتنبّي) الذي كتبت عليه شروح عدّت، كانت بمثابة بحوث مبكّرة في التناص اكتست ثوب \شالبحث عن سرقات المتنبّي تحت مسمّيات مختلفة باختلاف المنتصرين له والمنتقمين له، هذه البحوث في التناص ظلّت رهينة نقد وبلاغة محدّديْن، هي ذاتها بحاجة إلى دراسة بعض آلياتها ومفاهيمها.

هذا عن الشروح النصّ (القارئ المقروء)، قارئ للمتنبّي مقروء من ابن معقل. فماذا عن المآخذ، هذا النشاط الأدبي الذي يكاد يكون مجهولا في زمننا؟ لا شكّ أنّنا هنا بإزاء نصّ يحتاج أيضا إلى اكتناه ومعرفة.

إذا كانت الشروح انطلاقا من اسمها بحثا في المعاني فإنّ الهدف هو البحث في السبل التّي توصلت بها هذه الشروح إلى المعاني بشتّى مستوياتها، وإذا كانت المآخذ هي مآخذ على هذه المعاني التي هي حقل التنازع فإنّ تعدّد

المنارة للاستشارات

المعاني وتعدّد مستوياتها يصبح مدار البحث ممّا يجعل نظريات القراءة والتأويل والبلاغة الجديدة دراسات لا مناص منها للولوج إلى هذا النموذج من التراث، دون أن ننسى أنّ التراث بتميّزه قد يوجّهنا كما يتوجّه بقراءتنا.

سبقت الإشارة إلى أنّ "كتاب المآخذ على شراح ديوان المتنبّي" تثير إشكالات عدّة منذ عتبة العنوان الأولى فنحن هنا أمام متون تمثّل مستويات ثلاثة:

ش1	الديوان	مقروء 1	(بفعل القراءة يتحوّل النصّ
(جمع)	الشراح ↑	قارئ[1] مقروء	إلى جمع نصوص)
(جمع)	المآخذ ↑	قارئ[2] للديوان	قارئ [1] للشروح

ونضيف الآن بعد الولوج إلى هذه المتون نقطة نرى أنّها من الأهمّية بمكان هي هذه القراءات تتقاطع وتتفاعل فيما بينها (تتناص) على جسد نصّ هو الآخر يتناص مع جملة من النصوص، وبعبارة أخرى فإنّنا نجد أنفسنا هنا أمام نصوص نقدية تتداخل وتتبادل فعل القراءة لنصّ يزيد من فعالية نشاط القراءة ذلك أنّه هو الآخر يتقاطع مع نصوص سابقة له ومعاصرة ممّا يجعلنا نضع أيدينا على نشاط أدبي يوشك أن يكون نوعا أدبيا فريدا ومضافا لإلى ما ألفناه في التراث فعلى سبيل المثال يورد ابن معقل قراءة الواحدي لبيتين من الديوان[5] هما:

و مكرمات مشت على قدم الـ ـبرّ إلى منـــزلي تـــردّدها
أقرّ جلـــــدي بهـــا عليّ فـــما أقدر حتّى الممات أحدّدها

حيث يقدّم الواحدي قراءته معتمدا في ذلك على تناص بيتيْ المتنبّي مع بيت للناشئ الأكبر قائلا: أراد بالمكرمات ها هنا ثيابا أنفذها، أي أقرّ الجلد بظهور ما عليه من الخلع للناس الناظرين إليه، فكأنّه باكتسابه ناطق مقرّ كما قال الناشئ الأكبر.

ولو لم يَبُحْ بالشكر لفظي لخبّرت ويميني بما أولتني وشماليا

ففي تقرير الواحدي للمعنى الذي يراه من جلد المادح يقرّ بفضل الممدوح عليه بما يلبس من ثياب مستعينا بنصّ آخر منطلقا من تناصهما على مستوى هذا المعنى ذاته.

في حين يرى ابن معقل أنّ معنى النصّ أعمق من معنى القراءة التّي قام بها الواحدي، أنّ النعمة ليست في الثياب بل إنّ الجلد ذاته نعمة، وابن معقل لكي يؤكّد قراءته هو يجعلها تتكّئ على التناص أيضا، ولكن نصّ آخر هو للحطيئة:

المنارة للاستشارات

سقوا جـــارك العيمان لمّـــا تركتـــه وبرّد عن بـــــرد الشتـاء مشافره

سناما ومحضا أنبت اللّحم فاكتست عظام امرئ ما كان مشع طائره

ولكي نوضح هذه الاستضاءة بمناهج النقد الحديثة نلجأ إلى الخطاطة التالية:

ش2

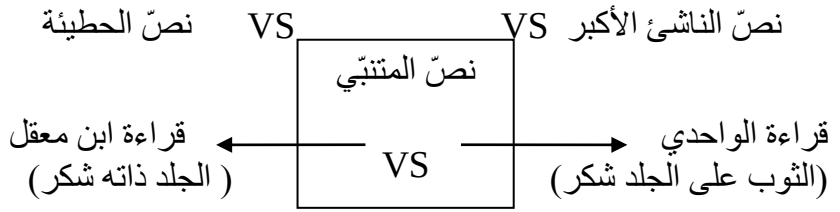

ونضيف بأن استشهاد ابن معقل بالحطيئة باعتباره شاعرا من فحول الشعراء يفضّل الناشئ الأكبر يكسب قراءة ابن معقل حجيّة أكبر، ونعتبر أنّ القرّاءتين تتقاطعان لأنّ الثانية لا تلغي الأولى بل تعمقها، وتجدر الإشارة إلى أنّ في قراءة ابن معقل للبيتين عبارة ملفتة للانتباه وهي قوله: "المعنى الذي قصده المتنبّي أتمّ مما ذكره الواحدي"، إذ يبدو منها أنّ حجية قراءة دون أخرى هي قدرتها على إتمام وتعميق المعنى.

لقد عُرف في تاريخ الأدب العربي نشاط قرائي كثيف حاول فيه النقّاد والشرّاح عقد قراءة تناصية تتوخّى معرفة تفاعل النصوص وتداخلها، وقد أخذ هذا النشاط مسميّات وأضربا مختلفا بعضها يندرج في درس البلاغة وبعضها في درس النقد كقولهم النسخ والمسخ والسلخ .

فالعميدي صاحب "الإبانة عن سرقات المتنبّي" يورد أبياتا للمتنبّي يرى أنّ غيره سبقه إلى معناها، ثمّ يردف: "مثل هذا البيت يسميه أصحابه التوارد، ويسميه خصمهم النسخ والتعمّد...".[6]

علما أنّ المتعارف عليه هو أنّ مدار القراءة من مثل هذا التفاعل بين النصوص هو معرفة من (سبق) الآخر إلى المعنى.

يورد العميديُّ في (السرقات) نصّا هاما في معرض حديثه عن الفريقين المتخاصمين حول المتنبّي، هذا النصّ هو بمثابة وثيقة تقعيدية للتناص عندهم، إذ إنّ ناقدا من المنتصرين للمتنبّي يختم مناظرة بقوله: "سبحان من ختم بهذا الفاضل الفحول من الشعراء وجمع له من المحاسن ما بعثره في كلّ من تقدّمه"

المنارة للاستشارات

ثمّ يحتج ببيت المتنبّي، فردّ عليه العميديّ بأنّ للأقيشر معنًى أفصح عن الغرض وأعرب".

لكن صاحب الرأي الأوّل يتساءل من أيّ قبيلة هذا العاجز الذي تكلّم بمثل هذا الفضول، إنّ للمتنبّي غلمانا وأتباعا أجلّ من هذا البليد المجهول، فيجيب العميدي" عافاك الله حديثنا في الإبداع لا في الإتباع وفي الأدب لا في الأنساب".[7]

هذا كلام عن السبق في المعاني والإبداع في القول الشعري، سنلاحظ أنّه في (المآخذ) ينتقل إلى السبق في الوصول إلى المعاني وإلى السبق في اكتناهها من النصوص الشعرية . فمن جهة:

أ)- نلحظ أنّه كما كان هنالك تسابق من الشعراء نحو ابتكار المعاني والإبداع فيها بين الشعراء كذلك هناك تسابق بين الشراح في ابتكار مداخل للقراءة واكتشاف معان ينم عن اقتدار وإبداع، كما في قول ابن معقل بشأن قراءة الواحدي لبيت المتنبّي: "هذا خبط عشواء وكلام من هو ذاهب عن الرشد ليس كما ذكر في الخطبة – سالكا الجدد ولا سابقا غيره-".[8]

علما أنّ (السبق) المشار إليه أعلاه ليس في الزمان فحسب فيما يتعلّق بالنصوص الشعرية بل هو سبق في القيمة الإبداعية. أمّا فيما يتعلّق بنصّ القراءة فإنّه وإن سبقه الأوّل في الزمان فإن النص الشارح أحرز السبق في عمق القراءة ونوضّح الفكرة السابقة على الشكل التالي:

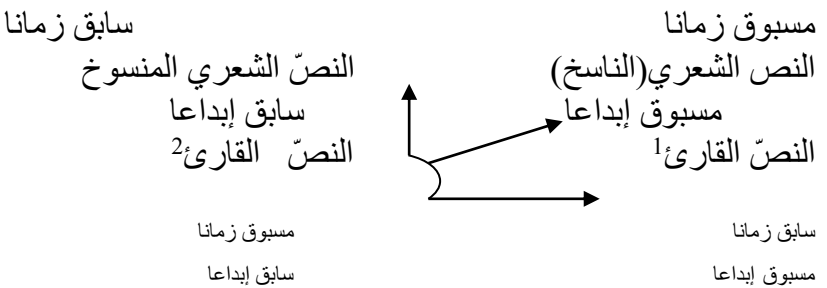

ب)- تقودنا الملاحظة السابقة إلى ملاحظة أدق وهي أنّ النصّ القارئ هنا يلجأ إلى ظاهرة في التراث نادرا ما يُلتفت إليها وهي اللجوء إلى قراءة أخرى يحاجج بها ويؤكد بها جدارته كما في المقاربة التالية: يقول الواحدي عن بيت المتنبّي:

يا وجـــــه داهيـــــة لولاك ما أكل الفنى جسمي ورحى الأعظما

المنارة للاستشارات

قال ابن جني: داهية اسم التّي شبّب بها.

وقال ابن فورجة: ليس باسم علم لها، ولكنّه كنّى به عن اسمها على سبيل التضجّر بما حل به من بلائها، أي أنها لم تكن إلا داهية.[9] فبينما يستعين الواحدي على قراءة المتنبّي الأوّل مع الثاني بقارئين هما ابن جني وابن فورجة فيغلب الثاني على الأوّل، فإنّ ابن معقل يغلب الثاني على الأوّل بعد أن يقوم بكلام على الكلام ويقدّم قراءة للقراءتين إن صحّ التعبير ونمثّل للفكرة أعلاه بما يلي:

ش4

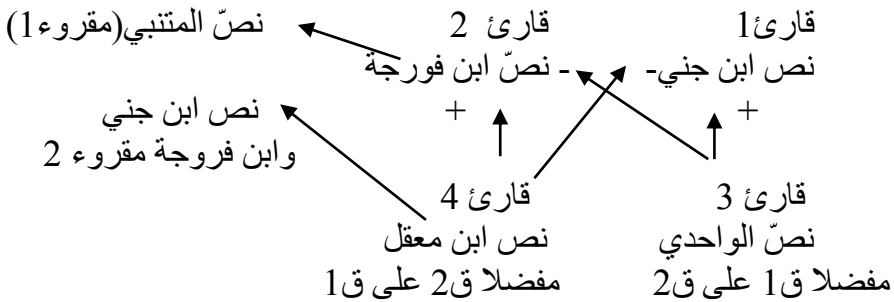

جـ)- اعتمادا على الاستضاءات التي قدمتها دراسة التناص في المآخذ فإنّ الطريف الذي توصّلت إليه هذه الدراسة هو أنّ هنالك ما يكاد يتجاوز الدراسة الحديثة لا من باب الإسقاط بل بفعل اختلاف المتون المدروسة واختلاف السياق الثقافي والأعراف النقدية بحيث يضطرنا الأمر إلى البحث عن مفاهيم ومصطلحات تحيط بالظاهرة، فإذا قلنا إنّ نصّ المتنبّي يتداخل مع نصوص شعرية.

Intertexte

نصوص سابقة نصّ المتنبّي

فإنّ النصوص القارئة هنا تتقاطع (كما أشرنا) على جسد النصّ المقروء.

ش5

نصّ (قارئ) ← يصبح ← نصا(مقروءا)

الواحدي من ابن معقل

مستعينا قارئا للواحدي وللمتنبّي

المنارة للاستشارات

بنصوص قارئه مستعينا بنصوص قارئه(نفسه)
(ابن جني، ابن فورجة)

يمكن أن نطلق عليه intercritique

غير أنّ الأمر يصبح أعمق من مجرد تقاطع على مستوى قد يشتّت الذهن إذ لم يحافظ على التركيز، ونعني هنا ذهن الباحث في هذا التراث النقدي المثير للدهشة حيث إنّ:

1)- الواحدي يقرأ المتنبّي.
2)- ابن معقل يقرأ المتنبّي والواحدي.
3)- الواحدي يكشف تداخل نصّ المتنبّي مع نصوص ما.
4)- ابن معقل يكشف تداخل نصّ المتنبّي مع نصوص(أخرى).
5)- يستعين الواحدي بنصوص قارئه فيرجّح بعضها.
6)- يستعين ابن معقل بنصوص قارئه (ذاتها أو أخرى) مرجّحا غير التّي رجّح ابن معقل.

نمثّل لذلك:

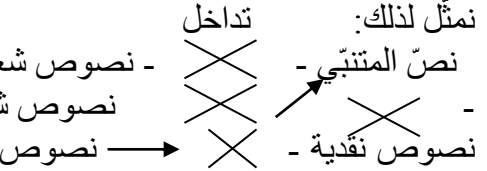

يتم ذلك في سبيل حجيّة أكبر للقراءة مما يجعل كلا منها يلجأ أحيانا إلى تكييف النصوص التي يراها متداخلة على النصّ المقروء ممّا يخلق نوعا من ازدحام نصوص Encombrement de textes في سابقة من مظاهر التناص قد لا نعثر كثيرا على مثيل لها.

فإذ يزعم الواحدي أنّ معنى البيت:

إلاّ يثب فلقد شابـــــت له كبـد شيبا إذا أخضبتْه سلـوةٌ نَضَلا

مأخوذ عن آبي تمّام:

شاب أسى وما رأيت مشيب الـ رأس إلاّ من فضل شيب الفؤاد

يرى ابن معقل أنه مأخوذ عن أبي نوّاس في جزء منه، هذا الأخير أخذ عنه أبو تمّام الجزء الآخر فيقول:

الأشبه أن يكون أبو الطيّب أخذ ذلك من قول أبي نواس:

يا عمرو أضحيت مبيضة كبدي فأخضب بياضا بعصفر الغيب

و يكون أبو تمام نقل منه شيبا الكبد إلى الفؤاد

المنارة للاستشارات

ش6

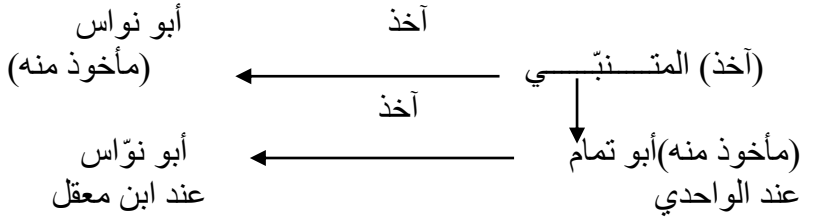

د)- كما تتداخل وتتفاعل النصوص المقروءة ثمّ النصوص القارئة كذلك تتداخل الخطابات والسياقات حول هذه النصوص، إذ يستعين ابن معقل في ذلك بأحد الشروح الكثيرة وهو شرح الكندي، فبيت المتنبّي الذي يورده الواحدي:

ولعلّي مؤمّل بعض ما أب لغ باللطف من عزيز حميد

يعلّق عليه قائلا: لعلي راج بعض ما أبلغه بلطف العزيز الحميد

أي الذي أرجوه لعلّه بعض الذي أبلغه بلطف الله وقيل إنّ هذا على القلب تقديره: لعلّي بالغ بلطف الله تعالى بعض ما أؤمله أمّا ابن معقل فيضيف: فيقال له الوجه الأوّل هو الحسن والثاني هو القبيح لأنّه لا يقال أبلغ بلطف الله فوق ما أؤمل، على أنّ الشيخ الكندي قال: "حمل بعض الناس هذا البيت على القلب الوارد في كلام العرب وهو أن يذكر الشيء ويراد عكسه، ولكن إنّما يجوز ذلك عندهم إذا أُمن الإلباس" وها هنا يقه اللبس، لأنّه لا يجوز أنّه يريد أن الشيء الذي أبلغه بلطف الله أمر عظيم فوق أملي وهذا هو الصحيح وهو الوجه الأوّل يقول أنا مؤمّل أشياء لعلها بعض الذي أدركه بلطف الله وتيسره، وكأنّ من قول جعفر الصادق عليه السلام: كن لما ترجو أرجى منك لما لا ترجو فإنّ موسى ذهب ليقتبس لأهله نارا فعاد نبياّ رسولا.[10]

من هذا النص المطول لابن معقل نخرج بملاحظة أنّه يضيف إلى ما سبق تداخلا آخر بين الخطابات على النحو التالي:

1. يقدّم الواحديّ قراءتين احتماليتين إحداهما له والأخرى فعلها مبني للمجهول.
2. يرجّح ابن معقل القراءة الأولى ويفنّد الثانية.
3. يتكئ ابن معقل في قراءته أو ترجيحه إلى قراءتين لغيره.
4. تنتمي القراءة الأولى إلى الخطاب العربي المألوف لشيخ من شيوخ اللغة، وتنتمي القراءة الأخرى للخطاب الديني وهي هنا لشيخ من شيوخ الدين، فلكي تصح الحجة داحضة يؤتى بخطاب قرآني لا يُعلى عليه. وهي

المنارة للاستشارات

طريقة يلجأ إليها ابن معقل بين الحين والحين ليقيم الحجّة وذلك بإيراد آية من كتاب الله أو حديث نبوي شريف، بل إنّه يذهب بعيدا في الأمر كما سنوضّح.

والملاحظ أنّ ابن معقل يلجأ مرارا إلى الخطاب النحوي اللغوي وربّما البلاغي أيضا في محاججة الواحدي، لكنّه وفي لحظة ما من الجدال يأخذ على الواحدي لجوءه إلى خطاب هو أبعد من تخصّصه وهو يفعل ذلك بطريقة لا تكاد تخلو من الطرافة، ذلك أنّ الواحدي في شرحه يأخذ على ابن جني مآخذ هي من صميم تخصّص هذا الأخير الذي يعدّ لغويا لا يشقّ له غبار، يقول ابن معقل " ولو أعرض عن التعرّض للعربية واشتغل بتفسير المعاني واشتغل بتفسير المعاني الذي أرصد له نفسه، وجعله المعتمد الذي هو بصدده، وعاب على ابن جني خروجه عن المقصود من الديوان لكان أليق به وأستر له".[11]

نوضّح ذلك كالتالي :

الواحدي(المفسّر)	يؤاخذ	ابن جني (اللغوي)
الشارح	لغويا	الشارح

ش7

ابن معقل يؤاخذ خروجه من التفسير إلى اللغة

الشارح الأوّل

إذ إنّ الواحدي حتى يورد بيت المتنبي:

خليلي ما هذا مناخ لمثلنا فشدا عليها وارحلا بنهار

يقول: (فشدا عليها) نوعان من الضرورة حذف المفعول والكناية من غير مذكور، يرد عليه ابن معقل لاجئا إلى الخطاب الديني القرآني الحديث فيقول: ما جاء مثله في كلام الله فليس بضرورة فأمّا حذف المفعول فقوله تعالى: "وأصلح لي ذريتي" وأما الكناية من غير مذكور فقوله تعالى"حتى توارت بالحجاب".

فتداخل الخطابات هنا والانتقال من الخطاب الأدبي المفسّر إلى الخطاب البلاغي والنحوي خروج من التخصص يتم حسمه باللجوء إلى خطاب أعلى هو الخطاب الديني، ومع أنّ ابن معقل لا يستكف أن يدخل في نقاش مطوّل يهيمن في الخطاب اللغوي إلا أنّه جني يرى من الواحدي إسقاطا لخطابات تجحف بحقّ المعنى – الذي هو (المقصود من الديوان) يلجأ إلى أسلوب التجريح والإقصاء- حيث إنّ هناك تراتبا في تفاعل النصوص .

المنارة للاستشارات

تداخل النصوص :(المتنبي×أبي تمام×أبي نواس)

تداخل القراءات(ابن جني × ابن فورجة × ابن معقل)

تداخل الخطابات(الأدبي × اللغوي × البلاغي)

هـ)- إنّ هذا التزاحم في تداخل النصوص والقراءات ربما يكمن تفسيره في ظاهرة استقلالية الأبيات، ذلك أنّ الكلام يتم في الأغلب على بيت مقطوعا عمّا عداه ويندر جدا أن نجد ما يتعدّى البيتين علما أنّ الثلاثة أبيات كانت تسمّى مقطعات، كما لا يتم الإشارة إلى قصيدة بعينها ينتمي إليها البيت أو البيتان، فإنّ النظر هنا يتم إلى البيت (أو البيتين) باعتباره نصا مكتملا ومن الملفت للانتباه أنّ ابن معقل يلجأ من إقامة حجية قراءته إلى الفصل بين بيتين كان الواحدي قرأهما متصلين في المعنى، بينما رأى ابن معقل أنّ المعنى يستقيم متى ما تمّ الفصل بينهما يقول: "وهذان البيتان ترى كأنّ الثاني بينهما تتمة لأوّل يزيد في معناه، ولا معنى له من دونه، بل إذا انفرد البيت الأوّل من الثاني كان مستقلا بنفسه وأكمل معنى..."

ويرى عبد السلام المسدي أنّ لبيت التقليدي تتظافر فيه وتكتمل بين ثلاثة هي البنية الدلالية والبنية التركيبية والبنية المقطعية أو العروضية فإذا اكتملت البنية النغمية عند القافية اكتملت البنية الثانية والثالثة، وكان ذلك بمثابة إقفال للبيت بحيث يصبح سياجا قائما بذاته في بنية كبرى هي ما يفسّر استقلالية البيت.[12] من هذا المنطلق فإنّ صفحات من المأخذ تقدّم لنا قراءة أبيات عديدة تنتمي إلى قصائد مختلفة لا يكاد يجمعها جامع لا من حيث الاتفاق في المعنى ولا من حيث اتحاد مدخل القراءة ...الخ، كأن ينتقل من قراءة بيت :

تمثلوا حاتما ولو علموا لكنت في الجود غاية المثل

إلى قول المتنبّي:

خليلي ما هذا مناخ لمثلنا فشدا عليها وارحلا بنهار

إلى قوله:

و المرء يأمل والحياة شهب والشيب أوقر والشبيبة أنزق

لعل هذا الانتقال بين الأبيات على أنها نصوص مستقلة هو ما يوضح تداخل النصوص المقروء والقارئة إضافة إلى تقاطع الخطابات حولها.

المنارة للاستشارات

و)- خلافا للبحث عن تداخل النصوص الشعرية من جهة ثمّ قراءتها بالاستعانة بنصوص قارئه تتداخل هي الأخرى يتم اللجوء أحيانا إلى إثبات المآخذ على شرح الواحدي وترجيح قراءة أخرى عليها، لكن هذه المرة بنصوص شعرية بحيث تتزحزح هذه من كونها نصوصا مقروءة إلى أن تصبح نصوصا شارحة للشرح.

يورد الواحدي بيت المتنبي منتقدا قراءة ابن جني لها:

وله في جماجم المال خرب وقعه في جماجم الأبطال

ويقول: قال ابن جني: يهب المال فيقدر بذلك على رؤوس الأبطال وهذا فارس وكلام من لم يعرف المعنى...

وبعد جدال مع الواحدي يرى ابن معقل أنّ الذي ذكره ابن جني أقرب إلى المعنى محتجا بأبيات أخرى للمتنبّي تتقاطع مع البيت السابق وترجح قراءة ابن جني.

المنارة للاستشارات

ش8

1	**2**
المتنبي مقروءا	في ظل نصوص شعرية
3	4
الشروح مقروءة	في ظلّ نصوص شارحة
5	
نص الواحدي	

هذا لما سبق في شكل 5

أمّا الآن فإنّ الأمر يصبح:

نص المتنبّي	1
يقرؤه نص الواحدي مستعينا	3
بنصّ ابن جني يقرؤهما	4
نص ابن معقل	5
بنصوص شعرية للمتنبّي	2

هنا يتغيّر التراتب بحيث أنّ النصوص الشعرية المقروءة والمتداخلة مع نصّ المتنبّي تصبح نصوصا قارئة لكل ما قبلها من نصوص فهي هنا على المحك والفيصل.

المنارة للاستشارات

مراتب المعنى وتشكلاته

أشرنا قبلا إلى أنّ المعنى هو مضمار السباق بين (الشروح) و(المآخذ) ومقياس السبق هنا هو صواب المعنى أو خطؤه، وجاهته أو انحطاطه، ويمكن أن نرتب هذه المعاني المتواصل إليها بفعل النشاطين معا على الشكل التالي:

1- ***إقصاء لمعنى الواحدي وتثبيت لمعنى ابن معقل:*** كما في قراءة بيت المتنبّي:

كأن سخاءك الإسلام تخشى إذا ما حلت عاقبة ارتداد

قال الواحدي يقول: أنت تعتقد سخاءك اعتقاد الدّين، وتخاف لو تحولت عنه عاقبة الردّة وهو القتل ودخول النار، وأقول ليس للقتل ها هنا معنى صالح والحدّ ما ذكرته في شرح ابن جني.[13]

2- القبول بقراءة الواحدي وترجيح قراءة ابن معقل:

قال المتنبي : وحام بها الهلاك على أناس لهم باللاذقية بغي عاد

قال الواحدي يقول: دار الهلاك نجيلك على قوم لهم ببلدك ظلم عاد

وأقول (ابن معقل) يحتمل أن يكون بلد العدوّ الممدوح وهو لا شبه ولا ظهر.[14]

و هذا يفيد بأنّنا بإزاء معنى أوّل ومعنى ثان.

3- تقديم قراءتين للواحدي وترجيح احداهما:

كما في قول ابن معقل: فيقال له الوجه الأوّل هو الحسن والثاني هو القبيح.[15]

4- تقديم قراءة للواحدي وقراءة لغيره وترجيح الثانية ورفض الأولى:

و قد سبقت الإشارة إلى ذلك.

5- الواحدي يحتج بقراءة لغيره وابن معقل يحتج بقراءة لغيره:

فيرجح الثانية ويقصي الأولى، وقد سبق الإشارة إلى مثله.

6 -إقصاء قراءة الواحدي وإقصاء قراءة غيره وتثبيت قراءة ابن معقل:

كما في شرح بيت المتنبّي عند الواحدي.

قالت وقد رأت اصفراري غاية ؟ وتنهدت فأجبتها المتنهد

لما رأت اصفرار لوني وجدا بفراقها قالت من به؟ أي من فعل به هذا الذي أراه، وقال ابن جني من المطالب به.

المنارة للاستشارات

وأقول (الكلام لابن معقل) وتفسيره من به؟ وتفسير ابن جني من المطالب به ، ليسا بصواب ولو قالا من به أي من في قلبه؟ أومن يهواه لأصابا.[16]

وهناك ترتيبات أخرى لتفسير المعاني لا يتسع لها المجال وإن كانت تفريعات لما ذكرنا أعلاه، فهي جميعها أنما تفيد تعدّد القراءات واختلاف المعاني بحيث أنّ بعضها قد يصل إلى أربعة أو يزيد كما في :

وقد تمنوا غداة الدرب في لَجَب أن يبصروك فلما أبصروك عموا

قال الواحدي: جاء عن ابن جنيّ في تفسير عموا وجهان:

أحدهما هلكوا أو زالت أبصارهم.

والثاني عموا عن الرّأي والرشد.

وأضاف الواحدي ليس بالوجه وأضاف وجها من عنده وهو أنّهم أرادوا أن يبصروك فلمّا أبصروك غضت هيبتك أبصارهم وعيونهم فكأنهم عموا .

يعلّق ابن معقل: أنّ هذا الوجه لا يزيد على الوجه الثاني من شرح ابن جني وفيه وجه رابع قد ذكرته.

هذه القراءات على تعددها وبالرغم من إقصاء بعضها لبعض تأتي متكئة إلى حجج مختلفة تكسب القراءة وجاهتها.

تعدد مصادر المعنى وتداوله

إذا تمعنا في المصادر التي يستقي منها ابن معقل معانيه التي يحاجج بها من يؤاخذهم في تتنوع بين:

معنى من عند القائل معنى من ظاهر معنى السياق الأدبي الثقافي

المتنبي النصّ الاجتماعي

معنى يصوغه القارئ

ابن معقل (أو غيره)

ففي تاريخ الأدب العربي سادت مراحل يحدد فيها المعنى بما يقصده الشاعر فقيل (المعنى في بطن الشاعر) ولعله قد مرت مراحلها أطول اكتفى فيها بالمعنى(الظاهر من النص) على أنّ هذا الأخير هو المصدر الأوّل والأخير للمعنى: هذان المصدران وسما النقد والبلاغة لأمد غير قصير بميسمهما: ثم جاء عصر أصبح للسياق الخارجي فيه كلمته فسادت قولة الجاحظ بأنّ(المعاني في الطريق) ولا شكّ أنّ هذه النقلة قد سمحت إلى حدّ بتعدّد المعنى واختلافه،

المنارة للاستشارات

غير أنّ النقلة الأكبر ستحدث مع تدخل القارئ في اكتناه المعنى بجهد من مبدعين أمثال أبي نواس وأبي تمام وقراء من أمثال الزمخشري والجرجاني.

يوزع ابن معقل مداخل قراءته بين أطراف الخطاب السائدة في عصره بما يقتضيه المعنى، يتكئ ابن معقل في اختلافه مع الواحدي على المتنبي (القائل) من باب أنّ المعنى في بطن الشاعر وأنّه هنا هو الفيصل.

فيقول: وعلى هذا الوجه ما أساء المتنبي بل لأساء الراد عليه بغير علم.[17]

أو يقول إنّه قصر في العبارة فنقص المعنى الذي أراده أبو الطيّب.[18]

وابن معقل إنما يفعل ذلك إذا رأى من الواحدي إسقاطا لذاته على النصّ وتحاملا منه بمعنى أنّه أفرط في التأويل إذ فتحه على مصراعيه بما لا يتطلّبه النصّ، في حين أنّه لا يلجأ إلى الاحتجاج بمعاني المتنبّي في حال ما إذا رأى أنّ التأويل محدد بما ينتجه النصّ من إضاءة.

وفي المقابل يتكئ ابن معقل على النصّ وحده متكئا على ما فيه من علامات محاججا بذلك الواحدي في قراءته لبيت:

ولما فقدنا مثله دام كشفنا عليه فدام وانكشف الكشف

يقدم الواحدي قراءة ويضيف: ولم يفسّر أحد هذا البيت كما فسرته وبيّنته، ولو حكيت تخبيط الناس فيه وأقوالهم المرذولة والروايات الفاسدة لطال الحطب، ويعلم ابن معقل: إنّه قد خبط أيضا في قوله: عليه أيّ حال الفقد وإنّما الضمير في عليه راجع إلى مثلهو يكون على بمعنى(عن)، بل إنّ ابن معقل قد لا يكاد يلتفت إلى المتنبي ذاته ،ذا رأى ما يكفي للمحاججة.

على احتمالات أربع في هذا النص ؟

يبدو من مجمل قراءة (ألمآخذ) أن النصوص المشروحة تختلف من حيث المعنى حتى وان كانت لشاعر واحد في ديوان واحد , بل حتى وان كانت بين أبيات قصيدة واحدة , اذ ان المعنى قد يكون في السطح قريب المنال وقد يكون بعيد المنال في العمق مما يحتاج الى جهد القارئ وهو ما يؤكده ابن

معقل بصدد شرح الواحديّ لأحد الأبيات: "وأقول: المعنى الذي قصده أبو الطيب أتمّ ممّا ذكره الواحديّ." (2) وفي هذا إشارة إلى المعنى عن الواحديّ, بينما يشير في مكان آخر الى أن: "الفائدة في ذلك ظاهرة ."(3)

إذا اعتبرنا أن المآخذ نوع من الشرح يضاف إلى الشروح التي ينتقدها، فإننا نلاحظ أن هذا الشرح يختلف كثيرا أو قليلا عن مثيله عند الغربيين، "فكلمة Hermeneutics هي التعبير الإنكليزي للكلمة اليونانية الكلاسيكية

المنارة للاستشارات

Hermeneus (هرمس) وتعني المفسر أو الشارح، وفي موضع من كتابة الفيلسوف أفلاطون وصف الشعراء بأنهم (مفسرو الله)[19]".

يبدو من أدبيات الهيرمنوطيقا العربية أن الشارح وسيط بين طرفين فـ Inter-pieter توحي بذلك من خلال السابقة Inter أما اللاحقة prete فتوحي بالإعارة المتبادلة فمهمة هرمس هي بناء جسم التفاهم بين الآت والجنس البشري وتجاوز الفجوة بين العالمين.

يتعلق الهرمينوطيقا إذا بالتفسير وحتى بالترجمة خاصة فيما له علاقة بتفسير النصوص المقدسة[20].

أما فيما يتعلق بالشرح عند العرب عامة وعند ابن معقل خاصة فإن الأمر مختلف إذ يبدو من المتن أن الشارح لا يتخذ مكان الموجه للقراءة، فحسب بل إنه يحتل مكان فيادة المعنى حتى قبل الشاعر، فهو في أحيان عديدة يرى أن الشاعر لم يفلح في التعبير عن المراد أو أنه كان عليه قول كذا بدل كذا كأن يقول " وهذا الذي قصده المتنبي، وفي ذلك كثرة غلو وقلة تخرج يجعل أبرد نار الهوى أشد حرارة من أحر جهنم، وهو مجاز شعري لا يتخرج منه المتبني"[21] ويقول " كأن هذه المبالغة التي بالغ بها أبو الطيب في عجز البيت نقص بل نقض لما ذكره في صدره"[22]. بل إن ابن معقل وفضلا عن توجيهه لغيره من القراء بما فيهم ابن جعفر يوجه المتنبي ذاته فيقول: " إن هذا البيت وثانيه ورابعه وخامسه، ولا يصدر مثل هذا إلاّ عن متهافت في الرأي والعقل، غير متماسك في التقى والدين، وكأنه ينبه على قائله بذلك، بل ينادي"[23].

يعتبر تودورت "أن القارئ" أكبر منسيّ في تاريخ الأدب، في حين تتيح الشروح والمآخذ الفرصة واسعة أمامه لا لبشرك في المعنى بل ليكون رائدا في تأسيسه.

الهوامش

1- المآخذ: ص 125.

2- المآخذ: ص 219.

3- م ن ص 15.

4 - م ن ص 63.

المنارة للاستشارات

5- المآخذ، ص15.

6- أبو سعد محمد بن أحمد العميدي، الإبانة عن سرقات المتنبّي، دار المعارف، مصر، ط2، دت، ص26.

7- المرجع السابق، ص22.

8- المآخذ، ص12.

9- المآخذ، ص17.

10- المآخذ، ص23-24.

11- المآخذ، ص27.

12- ينظر عبد الله المسدّي، مجلة الأقلام، مقال نموذج المفاصل، ع8، 1984.

13- المآخذ، ص70.

14- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

15- المآخذ، ص23.

16- المآخذ، ص43.

17- المآخذ، ص91

18- المرجع نفسه، ص93.

19- دافيد جاسبر، مقدمة في الهرمنوطيقا، منشورات الاختلاف، ط 1، ص 21.

20- ن. م: المكان نفسه.

21- المآخذ: ص 7.

22- نفسه ص 26.

23- نفسه.

المنارة للاستشارات